

اللغة العربية نبتت وتطورت بمقتضى ناموس النشوء والارتقاء الطبيعي

لأستاذ رشار دارغوث

(بيروت)

3 — ونظرة عابرة ، على ما في القرآن الكريم من سعة في الالفاظ ، وبالتالي في الافكار — وما فيه من فنية في التعابير والاساليب ... تحمل الينا الاقتناع بأن اللغة العربية ، كانت ، اذ ذلك ، قد بلغت مستوى رفيعا من التكامل العضوي ، والفكري ، والجمالي ، معا .

ولا يتانى ذلك الالفة منتشرة ، تضم العديد من العناصر والشعوب والثقافات ... على مدى قرون متطاولة .

ونظرة مماثلة على ما وصل الينا من الشعر الجاهلي ، تحملنا على الاقتناع بأن التنزيل الكريم لم يختر عينا هذه اللغة دون سواها — من اللغات أو اللهجات السامية المعاصرة — أو هي تدلنا — على الأقل — على ان ذلك الاختيار لم يكن اتفاقا بل مقصودا .

4 — وقد احصي عدد الالفاظ العربية ، فبلغ على ما قاله حمزة الاصفهانى : (52 ر 350 ر 12) اثني عشر مليونا ، وثلاث مائة وخمسين الفا ، واثنتين وخمسين كلمة ، ما بين مشتق وجامد وعلم . اما المشتقات المستعملة وحدها ، فقد بلغت ، لذلك الحين ، سبعين الف كلمة (3) .

في حين احصي ما استعمله العهد القديم (التوراة) من الكلمات ، فبلغ (5642) خمسة آلاف وست مائة واثنتين واربعين كلمة ...

1 — اختار السيد المسيح (عليه السلام) اللغة السريانية ، للجهر برسالاته ، وهو العبراني مولدا ونشأة ولفة .

وفي تعليق ذلك يورد المؤرخون ، واصحاب اللاهوت ، ان السبب كان شيوع هذه الالفة بالذات — اللغة السريانية — في الهلال الخصيب ، مربع الحضارة السامية (1) من بقاع المشرق الواسعة . في حين كانت اللغة العبرانية تعيش في قوقعة مغلقة . ولما كان صاحب الديانة النصرانية يريد ان ينشر رسالاته ، على اوسع مدى — ومن ثم في العالم بأسره — فقد لجأ الى اللغة السريانية الواسعة الانتشار .

2 — ومثل هذا يصح قوله في الاسلام ، واختياره اللغة العربية للتعبير عن ذاته . فكان القرآن عربيا ، وكان ان قرأه الرسول عليه السلام بأجمل لهجات العرب وارقاها ، مقدمة لنشر الاسلام في العالم بأسره .

وليس يخاف الآن ان جميع الشعوب السامية ، من بابليين وأشوريين وكلدانيين وأموريين وآراميين وفينيقيين وعبرانيين وعرب وأجاش ، كانوا في زمن ما ، قبل تباينهم ، يعيشون شعبا واحدا ، في مكان واحد ، ويتكلمون لغة واحدة ، هي اللغة السامية الام (2) .

وربما كانت هذه اللغة الام هي اللغة العربية بالذات ، لغة القرآن الكريم !

وأكثر قليلا من ذلك ما استعمله العهد الجديد (الانجيل) ، اذ بلغ (6.800) سنة آلاف وثمان مائة كلمة .

5 — كما أن أمة العرب ، خلافا لما يزعمه المفرضون ، هي المثلثة الحقيقية للعنصر السامي ، بكامل خصائصه ومقوماته (4) .

وعليه ، فإن هذا الغنى الفكري ، وتلك الخصائص العظيمة ، جعلت من الجزيرة العربية — على حد ما رواه استرابون المؤرخ الرومي — بلدا يعيش في اكتفاء ذاتي . الامر الذي أطمع فيها كل طاغية ... وليس في العالم اليوم بلد يعيش في الاكتفاء الذاتي — إذا استثنينا الولايات المتحدة الأمريكية .

6 — نورد هذا للخصوص الى القول بان اللغة العربية نبتت وتطورت بمقتضى ناموس النشوء والارتقاء الطبيعي (5) ، في بيئة غنية ، متنوعة الموارد المادية والبشرية . ثم تطورت بالاشتقاق ، والقلب ، والابدال والنحت ، والتعريب ، قبل الاسلام وبمده — على مدى عشرات القرون — من التاريخ المكتوب او المعروف ، ومن التاريخ غير المعروف ولا المكتوب .

وكان للعرب ، في ذلك الزمن السحيق ، دول : منها دولة « اليمن السعيدة » — كما كان لآبناء عمومته المذكورين آنفا — دول ، في بلاد ما بين النهرين وسوريا وفلسطين وفينيقيا او ارض كنعان .

ثم اصاب هؤلاء وهؤلاء انحطاط ، فظف عليهم المستعمرون ، من الشرق ومن الغرب .

7 — واخيرا جاء الاسلام ... بعد تلك الفترة فاتخذ لغة العرب الرفيعة الفنية والفنية بالفكر ، سبيله الى التعبير ، والتشريع ، وانشاء الدولة — لانها لغة حية ، واسعة الانتشار في العالم السامي — وهو العالم المتمدن لذلك الحين . فنهض العرب ، من جديد ، ومعهم الساميون الآخرون الذين دخلوا في الدين الاسلامي — اذ استأنسوا بلهجتهم او تعلموها بيسر وسهولة ، لما بين هذه اللهجة العربية الجميلة الفصيحة — ولهجاتهم من صلات لم تنقطع ، وان وهنت ، على مر الزمن ، وبفعل المسافات .

8 — وهنا نتوقف قليلا لتساءل عن مدى التكافل بين الاسلام واللغة العربية ؟ ويتميز آخر ، هل كان يتأتى للاسلام ان ينتشر لولا هذه اللغة ؟ وهل كان للغة العربية ان تنتشر لولا الاسلام ؟

وقبل الجواب بالتحديد ، وان صعب ذلك — نلاحظ ان اللغة العربية حلت في القرن الثامن او

التاسع الميلادي في لبنان مثلا — محل اللغة السريانية ، دون ان يحتل الاسلام فيه كامل مكان النصرانية . وقد سارع السكان اذ ذاك — وقد تعلموا التحدث باللغة العربية — الى كتابتها بحروف سريانية (6) .

كما ان الاسلام ، كدين سماوي ، انتشر في اقطار غير عربية ، وما برح أهلها المسلمون لليوم بجهلون باللغة العربية ، بصورة عامة .

وهنا نصل الى القول بان الاسلام لم يكن عاملا — الا بقدر ضئيل — في انتشار هذه اللغة . وان اللغة العربية ذاتها لم تكن سبيلا وحيدا لانتشار ذلك الدين الحنيف ، في العالم بأسره .

الاسلام كدولة ساعد على توسيع الرقعة التي يتكلم أهلها — او تكلموا لفترة طالت او قصرت — باللغة العربية . وذلك ابان ازدهار تلك الدولة . فلما سقطت العواصم الاسلامية ، في الشرق وفي الغرب ، ظلت هذه اللغة حية ، في مواطنها ، وحيث استقرت بصورة نهائية ، ثم تابعت انتشارها بمحض قدرتها وحيويتها وطاقتها الذاتية .

تلك القدرة التي جعلت ، من اللغة العربية ، اداة للتعبير عن أروع الشعر ، وجعلت منها — حتى في العالم الغربي — حاضنة للثقافة اليونانية ، من فلسفة أرسطو الى طب جالينوس ورياضيات أوكليدس — كما جعلت منها حاضنة للادب الشرقي وخياله المبدع ، من أمثال ابن المقفع الى قصص الف ليلة وليلة .

9 — وليس القول بان اللغة العربية تعيش بكفالة الاسلام ، الا من قبيل القول بان دين محمد (صلعم) قام بالسيف ... والمقلد غير المفرضين يعلمون ان الدين الاسلامي لم يقم بالسيف ، وان لجأ الى القوة احيانا — ككل عقيدة — في سبيل دعم الحق او في سبيل الدفاع عن النفس .

10 — وفي واقع البيئة — التي نعيش فيها — دليل ساطع على ما ذهبنا اليه . وهو هذه النهضة اللغوية والادبية الحديثة التي أسهم فيها لبنان بشطره المسيحي — فكان علماءه اللغويون وادباؤه وشعراؤه — هنا وفي مصر ، وفي سائر مهاجرهم — من معلمي اللغة العربية ، وباعثي امجادها ، ومحبي كلماتها في الكتاب وعلى اللسان — منذ منتصف القرن الثامن عشر للميلاد — في العالم العربي بأسره .

وذلك ، يوم كان المسلمون أنفسهم يكادون ينسون لغة القرآن ، فيتكلمون هذه اللهجات العامية — على اختلافها بين قطر وقطر بل بين حي وحي من

مدينة - وهي جميعها حصيلة الانحطاط ، ومن رواسب الاستعماريين الفكري والسياسي المتعديين - منذ استولى الاعاجم على الحكم في بغداد وسواها من عواصم الاسلام .

في هذه الاثناء - خلال قرون الانحطاط والظلام - كانت مدارس الاديرة في جبل لبنان ، والصوامع ، وراهبانها ، وكهنتها ، يعكفون ، كائمة المساجد ، وشيوخ الجامعات العربية الاسلامية ، في شمال افريقيا ومصر والعراق على درس اللغة العربية وتدريبها ، التي جانب اللغات الاخرى التي تستدعي الحياة الكهنوتية دراستها - من سريانية ويونانية ولايتينية .

11 - وهذا الواقع اثمر ثمرتين هما اولا : استمرار التلاقي بين لغتنا واللغات الاخرى ، وبالتالي اغناء هذه اللغة العربية بالمفردات والتعابير والاساليب .

وثانيا : تاثر الكتابة العربية ببعض الاصطلاحات السريانية ، وتأثر النطق ايضا . فحرف السين مثلا يرسمه المتعلمون ، في المدارس الكهنوتية ، تلوه شارة خاصة شبيهة بنقاط الشين (8) - والجيم - الحرف القمري في اللغة العربية ، يلفظونه كأنه حرف شمسي . والتاء المربوطة ، يلفظونها ، عند الوقف ، تاء مبسوطة - لا هاء - كما يقتضي ذلك علم التجويد ، وحسن اخراج الحروف .

وهناك تأثير ابرز ، في اللغة العربية المحكية ، في كثير من القرى اللبنانية - في الشمال - وبعض المدن - تأثير جاء اليها من السريانية بالذات . ومثاله لفظ الالف - حرف المد المعروف - كأنه (واو) . فطرابلس ، تلفظ هناك (طروبلس) - تأثرا باللهجة السريانية ذاتها التي تأثر بها كتبه الوحي . فخطوا (صلاة وحياة ...) هكذا (صلوة ، حيوة ...) في المصاحف الشريفة .

الهوامش :

- (1) - تاريخ العرب ج 1 الطبعة الرابعة للدكاترة فيليب حتي وجرجي وجبور .
- (2) - المصدر نفسه ج 1 ص 10
- (3) - الاشتقاق والتعريب ص 12 للمرحوم الشيخ عبد القادر دارغوث الشهير « بالمغربي » مطبعة الهلال بمصر 1908 .
- (4) - تاريخ العرب ج 1 الطبعة الرابعة .
- (5) - الاشتقاق والتعريب المذكور آنفا .
- (6) - وقد نشأ عن هذا الخليط من اللفظ العربي والحرف السرياني ما يعرف الآن باللسان « الكرشوني » وبه كتبت أسفار كنسية كثيرة .
- (7) - ذلك لان « السين » في العربية هي (شين) في السريانية : سمس (السريانية) هي (شمس) العربية .

كما اننا نجد كثيرا من الكلمات الكنعانية (الفينيقية) ما برحت لليوم جزءا من اللغة المحكية - التي هي اساسا حصيلة تشويه أو تحريف للغة العربية وما سبقها ، وما دخل فيها من الالفاظ الاعجمية المحرفة - الامر الذي يشجع دعاة احلال العامية محل اللغة الصحيحة ، على المضي في دعوتهم . كما يشجع بعض الفئات على العمل لبعث الحروف الفينيقية (الكنعانية) .

12 - ومن الفضول ان نذكر هنا بقيمة اللغة في حياة كل امة ، على صعيد الثقافة العامة أو القدرة الانتاجية ، والمشاركة في الحضارة الانسانية .

ولساننا العربي اغتنى ، على مر القرون - بتلاقحه مع الالسنة الاخرى . وجاء التعريب ، بعد الاشتقاق ، ليزيد في ثروة هذا التراث اللغوي الذي لا مثيل له ، لدى سائر الامم .

وما علينا اليوم الا ان نتابع السير على هذا الطريق المبد - وبسرعة - ودون تحديد لنطاق الاشتقاق أو التعريب - .

13 - والخلاصة ان اللغة العربية ، في انتشارها لم تكن عالة على الاسلام . ولا انتشر الاسلام بفضل اللغة العربية . انما كان ثمة بينهما تبادل في التأثير والتأثير كما كان مثله بين المسيحية واللغة السريانية - اولا - ثم بينها وبين اللاتينية وما تفرع منها ، فيما بعد .

ولا شك ان كل تيسير وازدهار يتناولان اللغة العربية يؤولان الي انتشارها ، كما يسهلان ادراك الاسلام على حقيقته - في اوساط المسلمين اولا - ثم في الاوساط الاخرى .